ثالثًا: إعجاز القرآن

«الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولًا كاملًا، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامَّة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل.

وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها؛ لم يوجد.

ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام».

ابن عطية

ما المراد بالإعجاز في القرآن الكريم؟

القرآن الكريم هو أعظم آيات النَّبي ﷺ، وقد تحدى الله به العرب، فعجزوا عن الإتيان بمثله، بل ولا الإتيان بسورة من مثله.

وقد تنوعت ألوان الإعجاز في القرآن الكريم.

لكن ينبغي التنبه أنَّ الوجه الذي وقع به التحدي هو الإتيان بمثل القرآن في نظمه، وبلاغته، أي: في لغته، لأن هذا هو ميدان العرب الحقيقي.

فالمقصود أنَّ الذي ينتظم - من وجوه الإعجاز المحكية - في كلِّ سورة من سور القرآن، ولا يتخلف عن واحدةٍ منها = هو ما يتعلق بالنظم العربي، وهو المتحدَّى به، دون ما سواه من أنواع الأوجه المحكية في إعجاز القرآن، مع الإقرار بأن أوجه الإعجاز متنوعة.

أريد مثالًا على إعجاز القرآن الكريم.

إن التعامل مع القرآن الكريم يحتاج إلى تجرد، وصدق في طلب الحق، ونحن نرى من صدق في طلب الحق يقوده القرآن إلى الإيمان بالله والتصديق بكلامه.

ونحن نبين إن شاء الله تعالى شيئًا من إعجاز القرآن في هذه السورة المباركة، سورة الكافرون، وكيف أنها مع وجازتها حوت من المعاني الشيء الكثير، والكثير جدًا، وسنجعل هذه الفوائد على هيئة نقاط ليتضح لك الأمر.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة: الكافرون].

وهذه السورة الكريمة، جمعت التوحيد العملي، فهي سورة البراءة من الكافرين.

١- افتتحها الله بقول (قل) ليبين أن أمر الدين ليس بيد أحد، ولو كان محمدًا ﷺ، بل الدين لله، منه وإليه.

٢- ثم يأتي النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾، الذي يستدعي إقبال المنادى، وانتباهه إلى ما يقال.

٣- جمع الله عز وجل في الآية الأولى بين عدة أصناف في وصف واحد، فجمع بين كل من لم يؤمن برسول الله ﷺ، لأنهم جميعًا يشتركون في وصف الكفر، فهذه آية واحدة تتحدث عن الكافرين من مشركين، ويهود، ونصارى، وبوذيين، وغيرهم.

٤- ثم أمر الله نبيه أن ينفي عبادته لآلهة المشركين في الحاضر، فقال ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: الآن.

٥- وأن ينفي عبادته لآلهة المشركين في المستقبل، فقال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾.

٦- وفي مقابل نفي عبادته لآلهة المشركين في الحاضر، جاء إثبات الشرك لهم في الحاضر، في قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، وفي مقابل نفي عبادته لآلهتهم في المستقبل قال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

٧- وعبر عن الله تعالى المعبود بـ«ما»، والتي تعني في هذا السياق المعبود

الموصوف بكونه أهلًا للعبادة، ولم يعبر بـ «من» التي لا تفيد هذا المعنى.

تنبيه: «ما: تستخدم للعاقل وغيره، وتطلق على العاقل ويراد بها: التفخيم والتعظيم، أما «من» فلا تستخدم إلا للعاقل.

٨- وقدم قوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ على قوله ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ ليشعرهم بسوء اختيارهم، وعسير عاقبتهم، وليخبرهم أنه اختار النصيب الأوفر، والحظ الأفضل.

وفيه مطابقة أول السورة مع آخرها.

٩- في السور عدة أساليب، منها: الأمر، والنداء، والنفي، واستخدام الجملة الفعلية، واستخدام الفعل المضارع، واسم الفاعل، والدلالة على الحال، والدلالة على الاستقبال، وأسلوب التقديم والتأخير، وغيرها من الأساليب التي اجتمعت في سورة عدد آيها (٦) آيات!

١٠- وفي السورة بيان لشجاعة النَّبي ﷺ، حيث خاطبهم بما يكرهون، وتبرأ منهم، ولم يخش أحدًا إلا الله الذي عصمه من شرهم ومكرهم.

تلك عشرة كاملة، وإن أردت بيانًا وزيادة زدناك، والله يؤتي فهم كتابه من يشاء، ويفتح عليه بما شاء.

* مراجع إثرائية:

١- إعجاز القرآن بين ابن تيمية والباقلاني، د. محمد العواجي، ط. دار المنهاج.

٢- كتب الدكتور فاضل السامرائي، ط. دار ابن كثير.

هل في القرآن ما يسمى بالإعجاز العلمي؟

لا شك أن القرآن الكريم جاء بما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، وما يسمى الآن «الإعجاز العلمي» بصورته الحالية، فيه خللٌ كبير من الناحية الشرعية، ومن الناحية التجريبية كذلك، وأكثر التفسير الواقع بالإعجاز العلمي = جهلٌ وتخرص، وعدم مراعاة لحقوق السلف وتفسيرهم مع الخلل الشديد في تطبيق العلم التجريبي على نصوص الوحي.

والحاصل: أننا نثبت أصل الإعجاز العلمي، لكننا نحذر من الإسراف المغالي في حمل الآية على مكتشف أو نظرية أو ما يدعى أنه «علمي»، ثم إن ما ثبت، وهو قليل جدًا، ليس مركزيًا في الاحتجاج القرآني على الإعجاز.

ومن الخلل الموجود عندهم تصحيح بعض الموضوعات والأحاديث الضعيفة جدًا لكي تقوى حجتهم، ومن العجب أنهم يقولون إن تضعيف العلماء لها، إنَّما حصل لأجل عدم علمهم بالمكتشف الجديد!!

ولو تأمَّلت أكثر الذين اهتدوا بسبب الكتاب، ستجد أنهم لا يذكرون (الإعجاز العلمي) إلا على سبيل الندرة!، بل بعضهم يهتدي بمجرد السماع، وبعضهم بفهم المعاني، وأسباب كثيرة ليس الإعجاز منها!

وكما لا يرضى أَهْل الإعجاز العلمي بما عند المفسرين من تفسير كل ظواهر الكون التي أثبت البحث التجريبي المعاصر خطأها، فإن المفسرين لا يرضون لكل واحد من الباحثين التجريبيين أن يوافق بين البحث التجريبي وما ورد في القرآن.

ونسوق نصًّا للعلامة د. محمد دراز، يقول فيه: «القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة، لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة – لا بغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب – وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير»، ويقول: «دفع الحماس بعض المفسرين المحدثين إلى المبالغة في استخدام هذه الطريقة التوفيقية لصالح القرآن، بحيث أصبحت خطرًا على الإيمان ذاته؛ لأنها إما أن تقلل من الاعتماد على معنى النص باستنطاقه ما لا تحتمله ألفاظه وجمله، وإما أن تُعوِّل أكثر مما يجب على آراء العلماء وحتى على افتراضاتهم المتناقضة أو التي يَصعُب التحقق من صحتها، وبعد أن نستبعد هذه المبالغات عن البحث، نرى أنَّ من مقتضيات الإيمان التي لا غنى عنها أن نضاهي الحقائق الفورية التي نجدها في القرآن مع نتائج العلماء المنهجية البطيئة».

وانظر مقالة: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧] بين دعاوى الإشكال والاقتباس والإعجاز العلمي!، د. حسام الدين حامد لتتبين منهج التعامل مع النصوص المتعلقة بالإعجاز العلمي.

ومن الكتب التي يمكن الولوج إلى الموضوع من خلالها:

١ – الإعجاز العلمي إلى أين، د. مساعد الطيار.

٢ – منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية، د. سعود العريفي.

٣ – التفسير العلمي التجريبي، د. عادل الشدي.

٤ – النظريات العلمية الحديثة، د. حسن الأسمري.

٥ – الإعجاز العلمي في القرآن الكريم عرض وتقويم، د. زاهر الشهري.

هل في القرآن ما يسمى بالإعجاز العددي؟

سأجيب عن السؤال في عدة نقاط لئلا يتشتَّت الكلام:

١ - البحث في العدد وأسراره له سلف من فعل الصحابة والأئمة، وهو - وإن كان قليلًا - إلا أنه لم يكن متكلفًا، ودلالة الآيات عليه ظاهرة.

٢- ظهر التكلف فيما سمي متأخرًا بالإعجاز العددي، وبدا هذا التكلف عند من تزعم هذا الأمر، واتخذته بعض الفرق الباطنية ذريعة وسندًا لآرائهم وضلالاتهم.

٣- افتقر هذا النوع من الدراسات إلى المنهجية العلمية، ووقع الخبط والخلط فيه ظاهرًا بين من يدعون البحث فيه، ولا أَدَلَّ على ذلك من تخطئة بعضهم بعضًا في قضايا كثيرة من أبرزها قضية الحادي عشر من سبتمبر، وعلاقة سورة التوبة بها!.

٤- لم ينتبه من تكلم في الإعجاز عمومًا إلى كون القرآن كتاب هداية، وإن شئت فارجع إلى كتاب الشيخ مساعد الطيار في الإعجاز ففيه إشارات نفيسة.

٥- الإعجاز العددي ليس من متين العلم، وإنما هو من باب اللطائف والملح.

كأن يقول قائل: «إن من اللطائف في سورة «الكوثر» أن عدد الكلمات الظاهرة في السورة عشر كلمات، وهذا يوافق اليوم العاشر من شهر الحج

(شهر ذي الحجة)، وهذا من لطائف السورة، لكنه لا يدخل في حد الإعجاز، وليس من متين العلم، والله أعلم».

وأخيرًا، **فبدراسة كثير من الكتب التي اهتمت بهذا اللون، يمكننا القول: إنَّ هذه الفكرة تقوم باعتماد شروط توجيهية حينًا، وانتقائية حينًا آخر، من أجل إثبات صحة وجهة نظر بشكل يسوق القارئ إلى النتائج المحددة سلفًا**، وقد أدت هذه الشروط التوجيهية أحيانًا إلى الخروج على ما هو ثابت بإجماع الأمة، كمخالفة الرسم العثماني للمصاحف، وإلى اعتماد رسم بعض الكلمات كما وردت في أحد المصاحف دون الأخذ بعين الاعتبار رسمها في المصاحف الأخرى، وأدت كذلك إلى مخالفة مبادئ اللغة العربية من حيث تحديد مرادفات الكلمات وأضدادها، إلى آخر التخبط والاختلاف الذي جر إليه زعم وجود الإعجاز العددي بهذه الصورة المعاصرة، ولذا ننصح بالابتعاد عنه.

مثال للخطأ والتحكم في مسألة الإعجاز العددي:

قال أحدهم: «ورد اليوم مفردًا (٣٦٥) مرة بعدد أيام السنة».

وإذا ما نظرنا فيما جمع وجدناه جمع لفظي «اليوم» و«يومًا»، وترك «يومكم»، «يومهم»، «يومئذ»؛ لأنه لو فعل لاختلف الحساب والعد.

رابعًا: التفسير .. التدبر .. التأثر

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

[ص: ٢٩]

هل يحق لكل أحد أن يفسر القرآن، وما الفرق بين التفسير والتدبر؟

هذا السؤال من أهم الأسئلة التي ينبغي التوقُّف عندها، ولأجل ذلك؛ سأحاول الإجابة عليه بصورة واضحة، ولا بأس إن طالت الإجابة قليلًا، فأقول:

التفسير هو (بيان معاني القرآن العظيم)، وهذا البيان إما أن يصل إليه المفسر اجتهادًا، وإما أن يصل إليه تقليدًا.

والاجتهاد على قسمين:

١- الاجتهاد في بيان المعنى المراد من الآية، وأئمة المجتهدين هم الحجة من الصحابة والتابعين وأتباعهم.

٢- أن يجتهد في التخيُّر من أقوال المجتهدين السابقين، أو بناء الأقوال على أقوالهم، وهم على طبقات شتى، ومن أجلهم الإمام ابن جرير، وابن عطية، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وكثير غيرهم.

وتكاد كلمة العلماء تتفق على أهمية علم التفسير، وأنَّه من أعوص العلوم، ويقصدون بذلك حقِيقةَ كَيفِيَّة الوصولِ للمعنى من الآيات، وأنَّه يحتاج إلى آلات قد لا تتيسر للإنسان إلا بجهد جهيد.

فالتفسير علم عظيم، خطير، جليل، وهو من أعوص علوم الشريعة، لا كما يُظَن، ومُتعَلَّقُه كلام الله تعالى، وهو شرح له وبيان عن معانيه وأحكامه، قدر الطاقة البشرية.

ومن ثَمَّ فإنَّ مسؤوليته عظيمة، والكلام فيه بغير علم كاف وتحقيق تام = من الافتراء على الله، والقول عليه بغير علم، ولذا كان كثير من السلف، أصحاب الفهوم الصحيحة، والألسن الفصيحة، يتورعون عن الكلام فيه بحرف، ويقولون الله أعلم بما قال، وما عندهم من العلم في القرآن أعظم مما عند أكبر كابر في الخلف.

وكثير من الناس يظن أن التفسير مجرد (تأليف)، وكتابة إنشاء حلوة حول الآيات، كتفسير نص شعري، ولربما سماه تأملًا، أو خواطر، وغير ذلك، ولا يغني هذا عن التبِعَة المذكورة.

أما التدبر فأقرب ما يمكن أن يقال في تعريفه، أنه (تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والامتثال)، أو (الوقوف مع الآيات والتأمل فيها، والتفاعل معها؛ للانتفاع والامتثال).

وهذا التدبر لا بد أن يسبقه فهم للمعنى المراد من الآية، إذ محل التدبر مدلولات الآيات.

وعليه، **فيمكن التفريق بين التدبر والتفسير من عدة وجوه:**

١- أنَّ التفسير هو كشف المعنى المراد في الآيات، والتدبر هو ما وراء ذلك من إدراك مغزى الآيات ومقاصدها، واستخراج دلالاتها وهداياتها، والتفاعل معها، واعتقاد ما دلت عليه وامتثاله.

٢- أنَّ التدبر أُمر به عامة الناس للانتفاع بالقرآن والاهتداء به، ولذلك خوطب به ابتداءً الكفار في آيات التدبر، والناس فيه درجات بحسب رسُوخ العلم والإيمان وقوة التفاعل والتأثر.

وأما التفسير فمأمور به بحسب الحاجة إليه لفهم كتاب الله تعالى بحسب الطاقة البشرية، والناس فيه على درجات أيضًا.

٣- أنَّ التدبر لا يحتاج إلى شروط إلا فهم المعنى العام مع حسن القصد وصدق الطلب، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر ١٧]، أمَّا التفسير فله شروط ذكرها العلماء، لأنه من القول على الله، ولذا تورع عنه بعض السلف.

ومما ينبغي التأكيد عليه: أن يُعلم أنَّ الناس على درجات متفاوتة في التدبر بحسب آلاتهم وإمكاناتهم، فليس تدبر العالم المتبحر في الشريعة كتدبر العامي، ولكل درجات، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

على أن كثيرًا من الناس قد يتجرأ على كتاب الله تعالى فيفسره بمعهود قومه، أو بما يهجم على خاطره من المعاني، وقد يسمي ذلك (الخواطر أو التأملات أو التدبر أو غير ذلك)، وهذا من الخطأ ومجانبة للصواب.

فلا بد من العلم أنَّ الله تعالى حين شرع التدبر للناس لم يشرع لهم أن يتجرؤوا على كتابه، بل هذا أمر لهم بتحصيل الآلة المعينة على تدبر القرآن.

والتأثُّر بالقرآن يحصل للمتدبر، وقد لا يحتاج الإنسان لكي يتأثر بالقرآن إلى تأمل عقلي، أو حتى إلى معرفة عميقة بالدلالات، بل إنَّ بعض المشركين، وبعض الأعاجم يقع عنده من التأثر بالقرآن مع عدم معرفة المعنى، إذ للقرآن سطوة على النفوس!

تنبيه مهم:

هناك فرقٌ بين التفسير وبين المعلومات الموجودة في كتب التفسير، **فليس كل معلومة موجودة في كتب التفسير هي من صلب علم التفسير**، إذ كل علم له بالقرآن تعلق، وقد يستطرد المفسر في علم برع فيه، فيتكلم عليه في سياقات كلامه عن الآيات، وقد يذكر بعض اللطائف والفوائد وغير ذلك.

وهذه اللطائف والفوائد هي في الحقيقة نوع من التدبر للقرآن المجيد.

* مراجع إثرائية:

١- أول تدبر، د. نايف الزهراني.

٢- القواعد والأصول، وتطبيقات التدبر، د. خالد السبت، ط. الحضارة.

٣- الخلاصة في تدبر القرآن، د. خالد السبت، ط. الحضارة.

نسمع عن لون من ألوان التفسير، وهو: (التفسير الإشاري) فما معناه، وما حكمه؟

مصطلح التفسير الإشاري يطلق على معانٍ، منها حقٌّ، ومنها باطل.

فأما الحق الذي فيه، فهو (**تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأهل العلم بالقرآن، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد**).

وأما الباطل الذي فيه، وقد يسمى: (التفسير الباطني/ الصوفي/ الإشاري)، فيخضع لمبدأ حاكم، وهو:

١- استبدال مبدأ الدلالة (اللغوية) الظاهرة بمبدأ الدلالة (الرمزية) الباطنة.

٢- استبدال مبدأ (عمومية إمكان معرفة المعنى) - من خلال الاعتماد على بيان قائل النص (الله)، أو مبلغه (الرسول) - بمبدأ (خصوصية معرفة المعنى) عن طريق الاعتماد على علم اختص به أناس دون غيرهم، وهم:

إمَّا الأئمة المعصومون من (آل البيت)، كما عند الشيعة الإمامية أو الإسماعيلية.

أو الأولياء الذين يفتح الله عليهم، ويكشف لهم هذه المعاني الباطنة - كما عند الصوفية - عن طريق ما يُسمى عندهم بـ (الكشف).

ولمزيد من المعرفة بهذه الطوائف، والمبادئ التي اعتمدوا عليها، يرجى مراجعة كتاب: (العقائدية، وتفسير النص القرآني)، للباحث الأستاذ/ ياسر المطرفي.

* وتعود كثير من التفاسير الإشارية وتفاسير الوعاظ وما يذكره بعض المعاصرين من فوائد الآيات = إلى الاستنباط.

وهذه الفوائد والإشارات على قسمين:

القسم الأول: أن تكون هذه الفوائد والإشارات صحيحة بذاتها، لا تخالف أمرًا من أمور الشريعة، وهي على قسمين من حيث ربطها بالآية:

أولًا: أن يكون الربط صحيحًا؛ أي: أن يكون بين الفائدة المذكورة والآية ارتباط بوجه ما.

ثانيا: أن يكون الربط بالآية غير صحيح، فالكلام باستقلاله صحيح، ولكن ربطه بالآية خطأ؛ لأن الآية لا تدل عليه.

القسم الثاني: أن تكون هذه الفوائد والإشارات غير صحيحة بذاتها، لأنها تحمل خطأ ما، وفي هذه الحال فإن ربطها بالآي خطأٌ.

وهذا النوع من التفسير هو نوع من الاستنباط لا يقبل إلَّا بشروط ذكرها المفسرون لا تجد تفاسير الصحابة خارجة عنها، والشروط هي:

١- أن لا يُناقض معنى الآية.

٢- وأن يكون معنى صحيحًا في نفسه.

٣- وأن يكون في اللفظ إشعارٌ به.

٤- وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا.

وعند محاكمة تلك الاستنباطات إلى هذه الشروط نجدها تتوافق مع المنقول من تفسيرات الصحابة دون توافقها مع المنقول من التفاسير

الباطنية المنقولة عن الشيعة أو الإسماعيلية أو بعض المتصوفة.

وبمعنى آخر: إنَّ طريق الوصول إلى الباطن في تفسير الصحابة والتابعين يكون من خلال الظاهر عن طريق دلالة التمثيل، أو دلالة الإيحاء، أو دلالات اللغة، أو المقام، أو السياق بحيث يظهر للمطلع عليه تناسبًا بين الظاهر والباطن الذي آل إليه.

بخلاف التأويل عند الباطنية الذي لا يُتَوَصَّل إليه من خلال الظاهر، بل من خلال الإمام المعصوم أو الولي المكاشف، ولذلك لا تناسب بين الظاهر والباطن الذي آل إليه ألبتة!

ولكن هذا لا يعني عدم وجود تفسيرات إشارية عند هؤلاء هي من جنس ما عند الصحابة، فهذا قد يوجد كما يوجد عند غيرهم، لكن الشأن فيما هو من خصائص تفسيرهم الذي لا وجود له عند الصحابة، فهذا النوع يحكم ببطلانه.

ومن أمثلة التفسير الإشاري عند الصحابة، ما ورد عن ابن عباس، قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: «إنه ممن قد علمتم» قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر: ١-٢] حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة،

فذاك علامة أجلك: فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا. قال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تعلم»»، [رواه البخاري: (٤٢٩٤)].

ومن أمثلته: الربط بين فهم القرآن وطهارة القلوب في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]، قال البخاري رضي الله عنه: «﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ [الواقعة: ٧٩] لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقه إلا الموقن»، [صحيح البخاري: (٩/ ١٥٥)].

ففهم البخاري من إشارة الآية، أنَّه «لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه، فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه»، [إعلام الموقعين: (١/ ١٧٣)].

قال ابن تيمية: «.. فهذا من نوع القياس فالذي تسميه الفقهاء قياسًا هو الذي تسميه الصوفية إشارة.

وهذا ينقسم إلى: صحيح وباطل، كانقسام القياس إلى ذلك.

فمن سمع قول الله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] وقال: إنه اللوح المحفوظ، أو المصحف فقال: كما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر، فمعاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة، وهي قلوب المتقين = كان هذا معنى صحيحًا واعتبارًا صحيحًا، ولهذا يروى هذا عن طائفة من السلف»، [مجموع الفتاوى: (١٣/ ٢٤٢)].

ما المراد بالأحرف المقطعة، وما قصة تفسير القرآن بالآرامية؟

الأحرف المقطعة، أحرف هجائية (**لا معنى لها، ومغزاها تحدي العرب**)، وإخبارهم أن القرآن مؤلف من جنس هذه الحروف، ولها هدف آخر، وهو: (**التَّشويق وإثارة الانتباه**).

والقرآن أَنزله الله بلسان عربي مبين، وظل العلماء يفسرونه عبر مقتضى لغة العرب جيلًا بعد جيل، حتى طل علينا في هذه العصور من يزعم أن القرآن لا يفسر إلا عبر لغة أخرى هي: الآرامية، وهي إحدى اللغات السامية، والتي كانت منتشرة في فترة قديمة.

وهذا الزعم، يقتضي عدة أمور، تدعونا عند تأملها إلى الانتهاء إلى بطلانها، ومن مقتضياتها:

١- أن النبيَّ ﷺ وصحابته لم يفهموا القرآن على وجهه، ولا عقلوا مراد الله تعالى منه، ومن باب أولى من جاء بعدهم من المسلمين.

٢- أن هذا التراث الإسلامي الضخم من تفسير وفقه وحديث وأصول وغيرها كله لا قيمة له! أو على الأقل هو محل الشك والارتياب لأن أصحابه الذين أنتجوه واعتمدوا في أكثره على القرآن الكريم لم يفهموا مراد الله ولا عرفوا مقصوده، فكيف لهم أن يستنبطوا منه هذه الأحكام والمسائل وهم لم يعرفوا الآرامية، وهي الشرط عند أصحاب هذا الزعم لفهم القرآن؟

وكيف سنثق بتراثنا الفقهي المبني على الكتاب والسنةِ إذا كان أعلامُهُ لم يفهموا كلام الله؛ لأننا نعرفُ أن أكثرهم لم يدرس الآرامية ولم يشتغل بها.

٣- ويقتضي هذا الزعمُ أن دارس الآرامية يفهم القرآن أكثر من دارس العربية المختص بها! وعندئذٍ لا معنى لقوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨]!! ولا معنى لأحد عشر آيةً نصتْ على عربية القرآن! بل يصدقُ عليه حينئذٍ أنه قرآن آراميٌّ غير ذي عوج!

٤- ويقتضي هذا الزعم أن نتحير في التعامل مع حديث النَّبي ﷺ، فما الذي سنفعله بالحديث النبويِّ الذي جاء بذات الألفاظ الموجودة في القرآن، هل سنزعمُ أيضًا أنه ذو جذور آرامية ونفسره على هذه الوجه؟ أم سنجري الحديث النبوي على مقتضى العربية ونقتصر في التفسير الآرامي على القرآن الكريم فيكون لدينا معنيان متعارضانِ للفظِ الواحدِ؟ الحور العين مثلًا في الحديث النبوي هل هي العنب كذلك كما يزعمه أصحابُ المدخل الآرامي؟ وهل نتكلف تفسيرها بهذا؟ وماذا عن قوله ﷺ (له سبعون من الحور العين)؟ هل هي سبعون حبة عنب؟ أم سبعون عنقودًا؟ أم سبعون جفنة؟ وإذا كانت سبعين عنبة .. فماذا عمن نُصَّ أنَّ له اثنتين من الحور العين؟ هل سيكون نصيبه في الجنة عنبتينِ مثلًا؟ وهل هذا غايةُ نعيمه؟! وكيف نصنع بقوله ﷺ: (زوجتان من الحور العين)، زوجتانِ من العنب مثلًا؟ وقوله ﷺ في صفة الحور العين: (ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها)، والنصيف الخمار، كيف نفهمه؟ وهل تلبس العنبةُ خمارًا ثم يكون خمارها خيرًا من الدنيا وما فيها؟

هكذا يذهب بنا المدخل الآرامي إلى حالة من التشظي والتفكك بين الوحيين، أو حالة من التكلف المعيب الذي لا يقبله عقل ولا منطق.

هـذه كلهـا مقتضيـاتٌ مباشـرةٌ، ولوازم عقليةٌ لا فـكاكَ منها، فإذا أضفتَ إلى ذلك إمكانيةَ أن يكون مدخلًا كما أسلفنا للطعنِ والتشكيك في كتابِ الله فإن الأمر يعظُمُ عندك ويكبُرُ.

ويمكن الرجوع لسلاسل د. سامي عامري، في بيان تلك المسألة، وهي بعنوان: (سلسلة: شبهة القراءة السريانية للقرآن .. تزييف التاريخ وتحريف اللغة)، (شبهات وسائل التواصل حول الإسلام ومقدساته).

ومقـال الدكتـور عـادل بانعمـة: **(القـرآن الكريـم والمدخـل الآرامـي، تعليقـات حول تفسـير القرآنِ العربيّ بمقتضى اللغـةِ الآرامية)**، ومقال: (نقد دعوى تفسير القرآن باللغة الآرامية، ردود متفرقة في مكان واحد).

لماذا أتدبر القرآن، وما الطريق إليه؟

إنَّ الله يقول جوابًا عن مثل هذا السؤال، ببيان عام للناس جميعًا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

إنَّنا نريد من القرآن = الحياة!

فلا حياة للقلب، ولا سلامة له بغير الإقبال على هذا الكتاب المجيد، إن للمسلم أوصافًا يستمدها بحسب تعلقه بالقرآن، فله من المجد، والحفظ، والرحمة، والهدى، والذكر، بحسب تعلقه بالقرآن تلاوة وفهما وعملا، وقد وعد ربنا الأكرم من أقبل على كتابه تعرضًا لنفحاته بالكرم الجزيل، والأجر العميم.

ففي القرآن الشفاء من الأدواء القلبية المهلكة في العاجل والآجل، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧].

وفي التعلق بالقرآن يجد الإنسان البصيرة التي هي النور الذي يبصر به مواضع قدمه، ومن يضلل الله فما له من هاد، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥].

وفي القرآن يحصل القارئ السكينة التي تنزل على القلب بردًا وسلامًا، لتطفئ النار التي تشتعل، لأنه يرى في القرآن مصارع الظالمين، وإن طال

الزمان، ومهلكهم الذي جعل الله له موعدًا..

إنَّه لا يحدثك عن القرآن وما يفعله في النفوس، مثل القرآن، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق، كمن هو أعمى؟!

إنما يتذكر أولو الألباب.

أما التدبر، فهو **تجربة تخوضها، ونعيم تتذوقه**، ومهما أخبرت عنه، فلا بد أن تحياه بنفسك، إنه يبدأ من معرفة مراد الله تعالى بكلامه، بفهم الكلام أولا، وبتثوير هذه المعاني.

إن القرآن كالتمرة كلما زدتها مضغا أعطتك حلاوة، والقرآن يحلو كلما كررته، ولذا ينبغي عليك أن تزيد تكراره، فإن عجائبه لا تنقضي، ولا يخلق على كثرة الرد.

ليس للتدبر دروب وعرة، ولا مسالك موحشة، لأن الله يسر القرآن للناس يأخذ كل منهم بمقدار استعداده، لكن أحدًا لا يجالس القرآن إلا خرج منه بشيء، ولا تزال تخرج بالشيء تلو الشيء حتى تقف على ما يدهش الألباب، ويأخذ بالنفوس.

افهم المعنى، وكرر الآية، ولا تستعجل، بل ازدد في الفهم، وابحث بصدق عن دواء دائك، وشفاء نفسك = فإنك لاقيه.

وآفة كثير من الناس انشغالهم بالحديث حول التدبر عن التدبر نفسه، فانشغلوا بالوسيلة عن الغاية، وببنيات الطريق عن واضحاته.

أقبل على القرآن متأملًا، وباحثًا عن مرادك، وتلمسه = تجده.

إنَّ في القرآن الكفاية، ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، اللهم اكفنا بالقرآن، ولا تسلبنا نعمته، واجعل لنا حظا منه!

ولمن يحب الخطوات العملية:

١- لا بد من تهيئة نفسك لتدبر القرآن، وذلك بمحبة القرآن، وتعظيمه، واستشعار الافتقار لهداياته.

٢- كن مع القرآن دائمًا، تلاوة، واستماعًا، وبحثًا عن الأسئلة التي تدور في ذهنك فيه.

٣- افهم المعنى من كتب التفسير، فشرط التدبر فهم المعنى.

٤- استعن بالكتب التي تعينك على إدراك بعض اللطائف الموجودة في الآيات.

٥- لا تمل من إعادة وتكرار التلاوة مرة بعد أخرى.

ويمكن للمتدبر أن يحدد موضوعًا، ويفتش عنه في القرآن، أو يبحث عن هداية القرآن في مسألة، أو قضية، وسيجد خيرًا عظيمًا.

هل التدبر خاص بالآيات التي تتكلم عن الدار الآخرة، وهل يمكن أن يتدبر الإنسان آيات الأحكام؟

اعلم - نفعك الله بما تعلم - **أنَّ القرآن نور كله، وهداية كله، ورحمة كله، وهو كتاب عظيم في حديثه عن الله، واليوم الآخر، وفي حديثه عن التشريع.**

وليس التدبر أن تدمع عينك، وأن يحضر قلبك عند آيات الآخرة - فحسب - بل إنَّ حضور القلب، وانفعال الجوارح بالعمل بأحكام الله وشرائعه، باب عظيم من أبواب التدبر، من وَلَجه نال خيري الدنيا والآخرة.

وتأمل - مثلًا - ختام آيات المواريث، والآيات الأولى من سورة النساء، تأمل خواتيم الآيات بالعظات الباهرات، والآيات النيرات على عظمة هذا الدين.

تأمَّل آية الميراث الأولى، وختامها بقوله سبحانه: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ [النساء: ١١]، وتأمَّل في أولئك الذين يتفننون في منع هذا أو ذاك من الميراث الذي جعله الله حقًا له.

بل تأمَّل في آية هجر النساء بعد الوعظ، ثم يأتي الضرب في مرتبة متأخرة عنهما، وتختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤]، عليٌ على من طغى وجاوز الحد مطلع عليه، كبير لا يرضى أن تُظلم المرأة ولا أن تضرب ضربًا مؤذيًا لها، وتأمل في الآية التي تليها، وختمه لها باسمي العليم الخبير!

إنَّ القرآن عظيم في كل تفاصيله، جليل في كل مفرداته، يحتاج إلى إقبال وفهم، مع إيمان وحسن تلقٍ، فإذا حصل ذلك أثمرت شجرة الإيمان في القلب، وآتت أُكْلَها بإذن ربها، وصار أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وهذا غيضٌ من فيضٍ، وقطرةٌ من بحرِ العظمة في آيات الأحكام، وحسن نظمها وجلاله.